الشَّـقَّـة

معاذ مصطفي

الشمسُ تحبو في إنهاكٍ لتختفي في حضن الليل الوليد بعد استسلام النهار العجوز له كعادتهما في صراعهما الأزليّ ..

obeikan.com

يومٌ معتادٌ آخرٌ ينتهي .. متاعب العمل اليومية ، قليل من التلقيح بالكلام من بعض زميلاتها ، نظرات الحسرة حينا والقرف أحيانًا أخرى تُصوَّب إليها من كل اتجاه .. أشياء اعتادتها منذ زمن فلم تَعُد تنفعل لها أو _ حتى _ تلقي لها بالًا .. حتى (عزّام) .. اعتادت اعتراضه المقيت لطريق عودتها ليصب في أذنها كلامَه السخيف عن قلبِه الذي ينفطرُ من فرطِ الوَلَهِ بها وعينيه اللتين جفاهما النومُ مذ تعلَّقت روحُه بها ..

كانت تظنه معتوهًا إلى أن صارحها برغبته في الزواج منها .. هنا فطنتْ إلى أنه يرسم هذا الوجه السمح المتظاهر بالعشق ليظفر بالشقة التي ورثتها عن أمها والتي تحيا فيها وحيدة .. فإنْ لم يكن يطمع في الشقة فأي شيء آخر يغريه بالزواج منها ؟ ؛ وهي القبيحة النحيلة كعود ثقاب .. هي التي قطع بها قطارُ الحياة سِنِيَّ العمرِ بسرعة مفزعة حتى جاوزت الثلاثين .

***

دخلتْ الشقة محاولة نسيان اليوم بمتاعبه وآلامه مُمَنِيَّةً نفسها بحمّام ساخن وعشاء خفيف ونوم هانيء ..

في غرفة النوم أطلَّ عليها وجهُها الشاحب بوجنتيه البارزتين من المرآة العتيقة .. على جانبيّ رأسِها بدأ الجليدُ الأبيض يغزو بشراهةٍ الفحم الأسود وبين الجبهتين تكونت منطقة من الرماد كحدٍ فاصل .. تُدرِكُ جيدًا أنَّ الأبيض سينتصرُ في النهاية وسيصيرُ شَعرُها كتلةً من الثلجِ تعلو وجهَهَا الأسود المُتغضِّن .. ارتعبت للفكرة ؛ فأكثرُ ما تخشاه أن تمرضَ فلا تجدُ من يناولها كوبًا من الماء .. أو تموتَ فلا يعرفُ أحدٌ ذلك إلا من الرائحة النتنة القادمة من الشقة المغلقة على جثتها منذ فترة ..

- إذن لماذا ترفضينَ كلَّ من تقدَّم إليكِ؟ ..

تُجيبُ :

- ومن الذي يرضى بمثلي ؟! ، كلهم يريدون الشقة .. كلهم طمَّاعون مُغرِضون .. لا أريدُ أن أكونَ هديةً رخيصةً يحصلُ عليها من يفوز بالشقة ..

كل هذه أسبابٌ مقنعة ولكن أكثرَ الأسباب زجرًا لفكرة الزواج كان تجربة أمها .. كان نصيبها رجلًا قاسيًا فظًّا يضربها ويهينها كطقسٍ يوميّ .. أموالها كانت دومًا تُصَبُّ في جيبه كي يبعثرها على سهراته ونزواته .. إلى أن مرضت ونضب مَعينُ الأموال فكان يريد منها رهن الشقة أو بيعها .. ولم يقنذهما من كل هذا العذاب سوى اليوم الذي استيقظا فيه ليجدا جثته هامدة على السرير .. رأت يومها في عينيّ أمها مزيجًا غريبًا من الأسى والحزن والفرح وشيءٍ من الفزَع .. أدركت أن ثمَّة أمرٍ غريبٍ في موت أبيها .. ولكنها لم تستطع أن تواجه أمها .. وما هي إلا أشهر قلائل حتى رحلت أمها هي الأخرى .. وتركتها وحيدةً كنَبتٍ أخضرَ وسط قطعان من الثيران !!

ذكريات سود !.. تبًّا لذاكرتها التي تحتفظ بكل تفصيلة منها!..

حاولتْ أن تنفضَ عن ذهنِها كلَّ هذا البؤسِ وتظفرَ بشيءٍ من النوم ولكنها كانت ليلة سوداء .. كوابيس مفزعة .. أخدود ينشق في الأرض من تحتها بين مساحة من الجليد وغابة متفحمة فتسقط فيه وهي تصرخ .. وتصحو مذعورة باكية .. تظلُّ تنهْنِهُ حتى تنامَ ثانية ليسلمها النوم إلى كابوسٍ آخر .. استيقظت بوجه شاحبٍ كالموت .. تشعرُ أنَّ حياتَها كابوسٌ

أسود لا يريد أن ينتهي .. حاولت أن تنسى تلك الليلة .. حاولت أن تفكر في شيء ينهي كل هذا العذاب .. كانت تريد حياة أفضل .. حياة بعيدة عن الوحدة وعن الزواج كذلك .. حياة أفضل أو الموت !..

حينما وصلت إلى العمل كانت الفكرةُ قد اختمرت تمامًا في عقلها ولم يبقَ سوى البدء في تنفيذها .. فكرةٌ من الممكن أن تنهي كل هذا الألم وتخلقُ بدلًا منه الكثير من الراحة والسعادة والأمان .. ذهبت إلى زميلة لها .. تكلمت معها كثيراً واتفقا على شيءٍ أظهرَ السعادةَ على وجهيهما .. أمضت باقي اليوم شاردة الذهن باسمة العينين حتى عادت إلى بيتها .. سارعت بتنظيفه لاستقبال الضيوف ..

***

عند العصر جاءت زميلتها مع رجلين ..
صعدوا إلى الشقة ..
أدخلتهم باسمة وقادتهم إلى الشرفة حيث بدأ الرجلان بتعليق اللوحة على السور الخارجي لها .. مكتوب عليها بخط واضح ..
(دار الخير لرعاية الأيتام والمتحاجين وتحفيظ القرآن) .
ومن يومها .. تنهي عملها وتعود لجنتها بسرعة .. تستقبل المُعلمات والأطفال .. منهم من يناديها بـ « أبلة « وآخرون ينادونها (ماما) حتى لتكادُ تطير من الفرح .